من آثارنا الدفينة

مدينة افامية واهمية اطلالها

نتيجة حفريات البعثة البلجيكية

بقلم فؤاد افرام البستاني

انسنا ، في الشهر الماضي ، بلقاء الاثري البلجيكي المشهور ، الاستاذ فرنان مايانس (Mayence) من جامعة لوفان ، رئيس البعثة البلجيكية للحفر في افاميـة ، وامين متاحف الفنّ والتاريخ الملكية في بروسل ؛ وكان عائـدًا من مركز حفرياته في موقع افامية ، فحدّثنا عن نتائج اعماله حتى الآن وعن قيمة مكتشفاته ، فرأينا ان ننقل الى قرائنا الكرام هذه المعلومات القيمة مع مقدّمة تاريخية ، شاكرين للاستاذ الفاضل تلطّفه ، متمنين له تمام النجاح في اعماله كلها

على نحو خمسين كيلومترًا من شمال حماة الغربي ، قرب ضفة العاصي الشرقية ، يرى المسافر في يومنا خرائب خالية وحجارة ضخمة مبعثرة او متراكمة ، منتشرة قرب قرية هناك بُنيت ضمن قلعة عربية قديمة فدعيت « قلعة المضيق » . تلك هي آثار مدينة مشهورة في تاريخ سورية القديم ، عرفها المؤرخون قبـل السلوقيين باسم بيـلا ، وبعدهم باسم افامية ، ثم عرفها العرب والصليبيون باسم افامية وفامية .

دُعيت المدينة بيلا (Pella) على عهد المقدونيين ، باسم مدينة في مقدونية كانت عاصمة فيلبوس ، وفيها وُلد الاسكندر الكبير[1] . وعلى اثر وفاة هذا الفاتح العظيم ، تقاسم قوّادُه الامبراطورية ، فكانت مقاطعات سورية والعراق وارمينية وما جاورها من نصيب سلوقوس ، الـذي عُرف في ما بعـد بلقب

١) ولم يبقَ منها اليوم الا بعض خرائب قرب قرية بيجي من اعمال سالونيك .

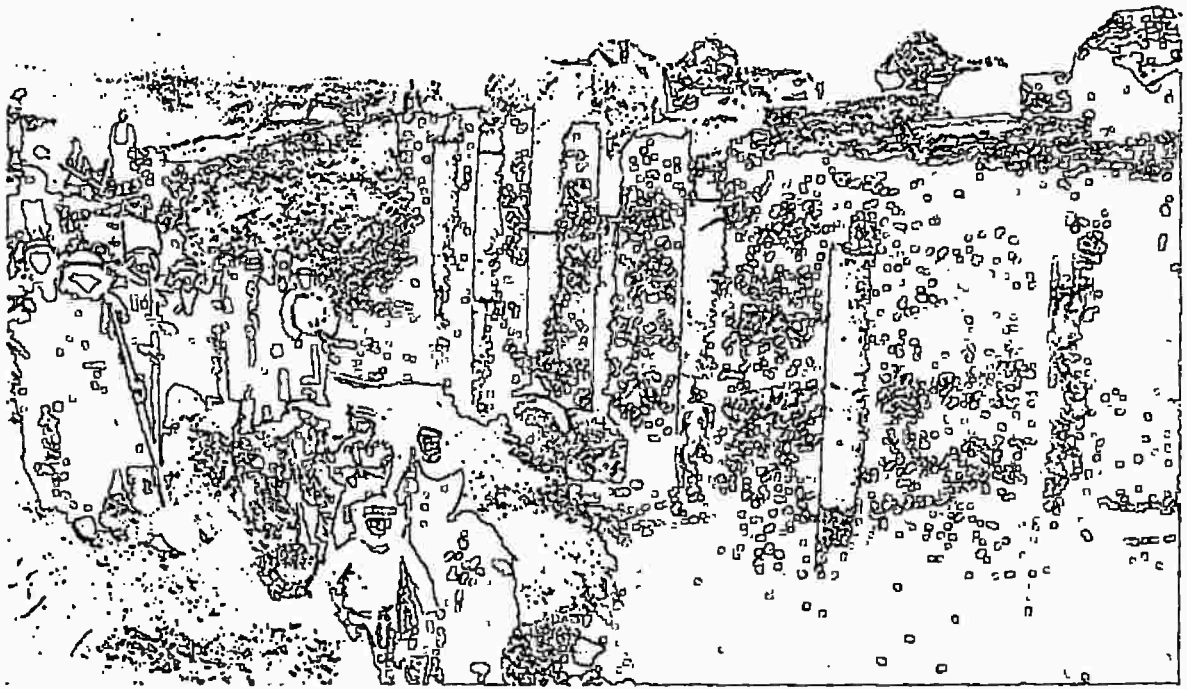

الرسم ٤ مشهد قسم من الاعمدة الضخمة ، والحفريات التي أجريت لكشف المطمور منها

الرسم ٦

منظر القناة الحجرية الضخمة ، في اسفل الصورة ، والاقنية الفخارية الصغيرة فوقها ، وعلى اليسار اركان القناة الكبيرة المكشوفة

« نيقاطور »[1] ومعناه « المنصور » ، فأسس الدولة السلوقية ، وانشأ المدن الكثيرة . وكان ان احتاج الى معسكر في نواحي العاصي ، ومستودع للخيول والمؤن والذخائر ، فكبّر مدينة پيلا المذكورة وجملها ، وغيّر اسمها فسماها أفامية[2] باسم امرأته . وازدهرت المدينة ازدهارًا عجيباً على ما يظهر حتى عُدّت احدى المدن الاربع الكبيرة في مقاطعة سلوقية او سورية الغربية وهي: سلوقية ، وانطاكية ، واللاذقية ، وافامية هذه .

ويُستخلص من بعض الآثار والاشارات التاريخية ان المدينة ظلّت على ازدهارها في عهد الرومانيين قبل المسيح وبعده ، وكانت مركز اسقفية .

وفي اواسط القرن السادس ، اثناء الحروب الشديدة بين الامبراطور

---

١) كان سلوقوس من افضل قوّاد الاسكندر ، وكان قائد الخيّالة الملكية على اثر وفاة سيده . فاحتلّ ما كان تحت يده من المقاطعات واعان استقلاله فيها . وعلى اثر منازعات يطول شرحها مع منافسيه من القوّاد والامراء ، ولاسيما أنتيغون ، أخذ يبسط نفوذه ويكتسح البلاد حتى احتلّ ما بين الفرات ونهر السند ، واتخذ لقب ملك سنة ٣٠٧ ق . م . مؤسس الدولة السلوقية . وبعد معركة ابسوس ، التي قُتل فيها منازعه انتيغون ، اضاف الى بلاده مقاطعات سورية والعراق وارمينية وفريجية (٣٠١) . ثم أسس على العاصي مدينة انطاكية سنة ٢٩٩ ق . م . وجعلها عاصمة ملكه . ولم يزل يواصل الحروب والفتوحات حتى بسط نفوذه على اكثر مقاطعات امبراطورية الاسكندر ، وسنة ٢٨٣ ق . م . نادى بنفسه ملكاً على مقدونية وتراقية وآسية الصغرى ، فحياه الناس بلقب «نيقاطور» اي المنصور . ولكن لم يمض عليه ثلاث سنوات في ذلك العزّ حتى اغتاله المدعوّ بطلميوس كيرونوس سنة ٢٨٠ ق . م .

٢) أسّس سلوقوس عدة مدن باسم امرأته أفامية منها واحدة ما بين النهرين على ضفة الفرات اليسرى ، مقابل زغمة ، تُدعى اليوم روم - قلعة .

ومنها واحدة قرب ينابيع نهر الماندر ، على حدود پزيدية اسمها اليوم آيدين كوزل حصار .

وذكر ياقوت ، عن يحيى بن جرير المتطبّب ، ان « سلوقوس بنى في السنة السادسة من موت الاسكندر اللاذقية وسلوقية وأفامية وباروا وهي حلب» (ياقوت : معجم البلدان – طبعة Wüstenfeld – ١ : ٣٢٢) ولا نعلم اي افامية اراد . ولعلها التي يهمّنا امرها الآن اذ انه يورد ذلك بعد ان يقول : « افامية : مدينة حصينة من سواحل الشام ، وكورة من كور حمص » (١ : ٣٢٢)

وهناك عدة مدن تُدعى باسم أفامية ، ولكنها لا تمتّ بشيء الى سلوقوس نيقاطور .

يوستنيانوس وكسرى انو شروان ، دخلها هذا سنة ٥٤٠ ، وعاث جيشه فيها.

وسنة ١٧ للهجرة (٦٣٨ م.) زحف عليها ابو عبيدة بعد ان افتتح شيزر ، فتلقاه اهلها بالصلح ، فصالحهم على الجزية والخراج[1] . ولم يبقَ لها بعد ذاك من ذكر مهمّ في التاريخ سوى انها وردت في الشعر العربي تارة باسم افامية ، كما في قول ابي العلاء المعرّي :

ولولاك لم تسلم افامية الردى

وطوراً باسم فامية ، كما في قول عيسى بن سعدان الحلبي :

ما مرّ برقك مجتازاً على بصري   الّا وذكّرني الدارين من حلبِ
ليت العواصم من شرقيّ فاميةٍ   اهدت اليّ نسيمَ البانِ والغرَبِ
ما كان اطيبَ ايامي بقربهم   حتى رمتني عوادي الدهر من كثَبِ

وقد ذكرها ياقوت بالاسمين: أفامية وفامية[2]. وعرفها الصليبيون ايضاً بهذا الاسم الاخير فدعوها « Famich »

وفي سنة ١١٥٢ ، حصل زلزلة قوية هدّت مبانيها ، وقضت اركانها ، فحوّلت صروحها الجميلة الى كوم متراكمة من الحجارة . ثم لعبت بها ايدي الحدثان ، فنقل العرب كثيراً من آثار تلك الصروح حتى بنوا قلعة المضيق ، وهي قائمة في غربيها على تل مرتفع يُشرف من جهة الشرق على انقاض المدينة في سهل فسيح ، ومن جهة الغرب على نهر العاصي . وكذلك بُني بحجارتها الخان الكبير الذي ينزله المسافر الى تلك الجهات في سفح التل المذكور. ولا شك أن هذا التل كان، في ما سلف ، متصلاً بأفامية التي تراكم التراب على معالمها فدفنها، ومحا النسيان ذكرها او كاد ، حتى قيّض الله لها همة الاستاذ مايانس فاقبل يحفر في ترابها حتى اكتشف آثارها ، فاعاد الى نور التاريخ ذكرى مدينة عظيمة تفتخر بها سورية ، فنشكر للاستاذ جدّه ونشاطه.

* * *

في مستهلّ القرن الحالي ، مرّت من تلك الجهات بعثة أثرية أميركية ،

---

١) ياقوت ١ : ٣٢٢ – والبلاذري: فتوح البلدان – طبعة de Goeje – ص ١٣١

٢) راجع معجم البلدان – طبعة Wüstenfeld – ١ : ٣٢٢ و ٣ : ٨٤٦

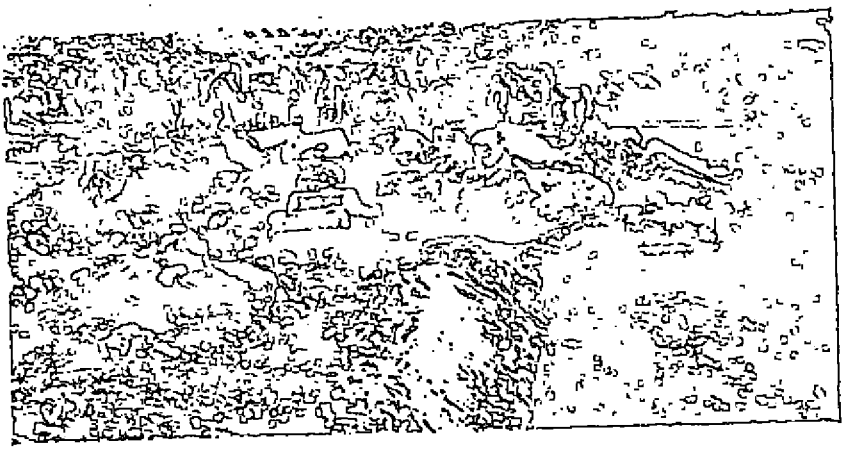

الرسم ١

بعض عمّال الحفريات ، اثناء الشغل ويُرى في آخر الصورة ، الى اليسار مضارب البعثة

الرسم ٢

منظر قسم من الخرائب تظهر فيه معامل الاعمدة التي طُمر القسم الكبير منها

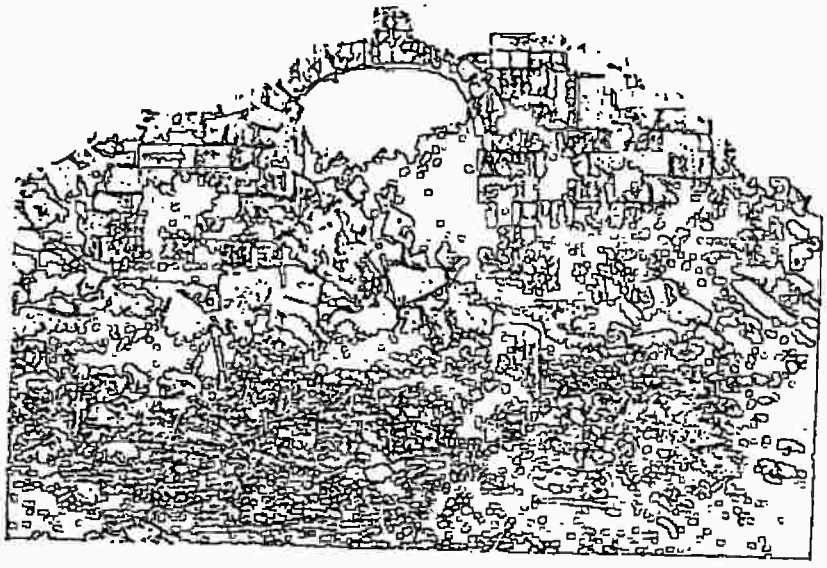

الرسم ٣

آثار الباب الشمالي – وهو مدخل الجادة الكبرى

الرسم ٥

مثال للاعمدة المكتشفة ، وهي مزخرفة في اعلاها واسفلها

فاستوقفها مشهد تلك الخرائب ، ففحصتها . ألا انهـا كانت مستعجلة ، على ما يظهر ، فلم تحفر بل اكتفت بما شاهدته على وجه الثرى ،وهو اقلّ من القليل بالنسبة الى ما حُفظ مطموراً ، فكتبت عنه الشيء النزر ، ورسمت لبعض المباني القديمة رسوماً ظهرت اليوم ناقصة كل النقص ، بل مماكسة للحقيقـة احياناً ، وما ذاك الا لانها مبنية على الظاهر من الاطلال فقط . ولم يتبع هـذا العمل شيء من الاهتمام في الاوساط العلمية ، فبقيت تلك الخرائب لا يقف عندها الا بدو سورية الشمالية ، ولا يهتمّ بها الّا من تروقهم بعض احجارها فيستلّوهـا لبناياتهم الخاصة ، حتى قدم ، لبضع سنوات خلت ، الاثري البلجيكي الكبير الاستاذ كومون(Cumont) ، فقام بالحفريات في الصالحية على شاطئ الفرات، وهي الحفريات المعروفة في موقع دورا - اوروبوس والتي لا تزال متابعة بمعاونة جامعة ييل(Yale) . فكان ان الاستاذ كومون ،عند عودته ، مرّ بافامية فشاهد خرائبها ، ولفت نظره اتساع محيط اطلالها . ولما لم يكن لبلجكة بعثات علمية في الشرق ، خطر على باله ان يعرض عليها القيام بهـذا العمل . فقابل الاستاذ ماَيانس وسأله هل يوافق على تأليف بعثة تأتي بادارته الى سورية فتجري الحفريَات في موقع أفامية ؟

فارتاح الاستاذ مايانس للمشروع كل ارتيـاح . واتى بلادنا سنة ١٩٢٨ للتحقيق والاستكشاف . وما هو ان صرف بضعة اسابيع في جهات افامية ، حتى حصل على ما كان يرغب فيـه من درس الموقع وطرق اجراء الحفريات ، فعاد الى بلجكة ورفع تقريراً ضافياً بذلك الى لجنة « الاعتماد الوطني للابحاث العلمية» «*Fond national des Recherches scientifiques*»، وهي مؤسسة غايتها تعزيز الدروس والابحاث العلمية على اختلاف انواعها تعزيزاً فعالًا بالرجال وبالمال. فاهتمت بتقرير الاستاذ ، وقرّرت ان تشارك الحكومة البلجيكيـة بامداد البعثة بكل ما تحتاج اليه في اعمالها . فلم يبقَ اذاً الّا تأليف هذه البعثة ومباشرة العمل . فألّفت هيئة عالية دُعيت « لجنة البحث والحفريات في أفامية» قوامها اساتذة من الجامعات البلجيكية الاربع،والاستاذ رينه دوسو(Dussaud) الاثري الفرنسي الخبير بآثار سورية . وتلطّف صاحبا الجلالة ملك البلجيكيين

وملكتهم فشرّفا اللجنة برعـايتها . وفي الخريف الماضي وصـل الى مركز الحفريات الاستاذ مايانس وبعيته المهندس لاكوست من مجمع الفنون البلجيكي وبعض الرجال ، فباشروا اعمال الحفر التي شغلوا فيها مائة عامل مدة سبعة اسابيع متوالية (انظر الرسمين ١ و ٢) . واوقفت البعثة اعمالها في اواخر تشرين الثاني بسبب رداءة الطقس ، وصرفت عمّالها على ان تستأنف الشغل في الخريف القادم . وقد وجدت عقبات كثيرة في نقل موادّ الحفر لتعذّر المواصلات ، كما انها قاست كثيرا من صعوبة المعيشة في الخيام لما كان يطرأ من تقلبات الجوّ في تلك الانحاء . ولا نزال نذكر وصف الاستاذ مايانس لليلة هبّت فيها العواصف وتراكمت الامطار ، ثم اشتدّت الزوبعة فقلبت المضارب ورمت في الاوحال كلّ مـا كان جمعه من معلومات ، وتخطيطات ، ورسوم ، وقوالب صور ، حتى خُيّل اليه ان اتعابه كلها ذهبت دون جدوى — وكان ذلك بعد انتهاء الحفريات — وانه لا بدّ من مراجعة الاعمال من اولها . قال الاستاذ هذا ، واخرج مفكرته فارانا مـا كان لا يزال عليها من اثر الاوحال كما انه ارانا التخطيطات والرسوم الملطّخة ، وقال : « وهذا ايضاً من الذكريات الجميلة التي نحملها من ارض افامية . » فضحكنا . فقـال ضاحكاً : « اننا نضحك اليوم لهذا التذكار ، ولكني كنت جدّ بعيد عن الضحك في تلك الايام الشديدة اذ رأيت ثمرة جهودنا مطروحة في الوحول وقد تراكمت فوقها امتعتنا ، فخلت ان رسومنـا تمطلت وقوالب صورنا تكسّرت كلها ؛ وداخلني أسف عميق لا يعادله الّا فرحي بوجودها كلها سالمة . » فاكبرنا هذه العاطفة في الاستاذ ، وادركنا ما يقاسيه رجال العلم في سبيل علمهم .

اما ما كشفت الحفريات عنه فآثار عديدة امكن مجموعها من تخطيط المدينة ، ورسم شارعها الاعظم ، وبعض مبانيها ، وكشف طريقة توزيع المياه فيها ، مع الاطلاع على بعض الآثار الخاصة بالمعتقدات والعبادات . ومـا افاد البعثة في توجيه حفرياتها خارطة جوية أخـذت من احدى الطيّـارات ، فشملت جميع الاطلال ، ومكنت المهندس من القاء نظرة اجمالية على المدينة بكاملهـا . فاستند الى تلك الخارطة من جهة ، والى الحفريات من جهة أخرى ، وتمكن من تخطيط المدينة ، واذا هي تظهر على شكل اهليلجي يستطيـل من الشمال الى

الجنوب ، ويتصل من جهة الغرب بالتل القائمة عليه اليوم « قلعة المضيق » ببنائها الجميل الذي أخذت اكثر حجارته من خرائب أفامية . ويرى القارئ ، في الرسم ٣ ، آثار الباب الشمالي للمدينة . وهو مدخل الجادة الكبرى التي كانت تكتنفها الاعمدة الضخمة على طول ١٦٠٠ متر فتقسم المدينة في وسطها الى قسمين من الشمال الى الجنوب.

وهذه الاعمدة تؤلف ، مع الصرح الآتي ذكره ، أهم مكتشفات البعثة . وهي تقوم منتشرة على جانبي الجادة ، كما تنتشر الاشجار في عصرنا على ارصفة الشوارع الكبرى ، ولم يكن يظهر قبل الحفر الا رؤوسها او حلقات منها فكان يظنها بعض الزوار آساسها . اما قطر العمود منها فيبلغ ١٢٠ سنتيمترًا.

وهنا ايضاً يعود الفضل الجزيل في توجيه الحفريات للصورة الجوية ، وكانت تظهر فيها آثار تلك الاعمدة على شكل رؤوس الدبابيس بيضاء متسلسلة من اول المدينة الى آخرها . فلم يكن على مدير الاشغال الا تتبعها ، فتتبعها وبالغ بالحفر حتى وصل الى قواعدها .

اما هذه القواعد فكانت مطمورة بعضها على عمق ٣ امتار ، واكثرها على عمق سبعة امتار ونصف المتر . وقد حفرت الخنادق الواسعة حتى كشف عنها ، كما يرى في الرسم ٤ ، فاذا هي مزخرفة بنقوش لطيفة على شكل اوراق اللبلاب (*lierre*) والكنكر (*acanthe*) المعروفة (انظر الرسم ٦) . وما زال الحفر متواصلاً خارج الجادة مما يلي العواميد حتى كشف عن الحائط الاقصى . ويبلغ عدد العواميد الالف ، على صفين متقابلين طول الجادة ، بين العمود والآخر ٣ امتار ، الا عندما تنفرج الاعمدة فتخلي المكان لطريق آخر ، فتتألف ساحة في المفرق ؛ وعندما تنفرج امام واجهة الصرح الكبير الذي أشرنا اليه ، القائم على اعمدة تشابه السابقة ، الا انها ارفع لا يزيد قطرها عن ٨٠ سنتيمترًا. وهو من اجدر الآثار بالاهتمام لما بدا في هندسته الرومانية ، واسلوب بنائه ، من المزايا التي تخالف كل ما يُعرف من نوعها حتى اليوم ، وقد تمكنت البعثة ، بواسطة ما اطلعت عليه من المواد ، من اعادة رسم هذا الاثر الفخم بكل ما يمكن من الدقة العلمية الخالية من تأثيرات الخيال والوهم . الا انها لم تتمكن

من معرفة غاية هذا البناء وهل كان معبداً ام قصراً خاصاً ، ام مركز ادارة او حكومة . ولعلها تتوصل الى ذلك بعد تفريغ الارض حول انقاضه.

وعلى ملتقى الطرق وجدت أثراً آخر يقوم بقاعدة كبيرة مزخرفة بنقوش دقيقة الصنع ، فوقها عمود كورنثي كان يجب ان يكون عليه تمثال الا انه فُقد لسوء الحظ . وقد تمكنت البعثة من اعادة رسم هذا الأثر ايضاً .

ومن الآثار المكتشفة انقاض مسرح روماني . وركن مزخرف يمثل مشاهد واشخاصاً تتعلّق بعبادة الكرم ؛ منها شخص واقف على احدى الدوالي المتفرّعة اغصانها حول فخذيه وصدره ، وقد رفع بيده فأساً مزدوجة ؛ وشخص آخر له رجلا تيس يمسك بيده ذنب حيوان لم يُعرف تماماً . وكلّها آثار مهمة لدرس عبادة الاله باخوس وعلاقتها بعبادة اله الكرم الشرقي . ويجدر بالذكر انه ليس من رُقم على هذه الآثار . ويمكن القول نفسه عن غيرها ؛ فان الرقم المكتشفة في افامية قليلة منها بعض الكتابات اللاتينية على نصب دفني روماني ، ومنها كتابة يونانية من عصر متأخر لا يمكن الارتقاء به الى ما وراء منتصف القرن الخامس .

وقد وجد في الشارع الاكبر ناووس من الحجر عليه نقوش رومانية تشبه نوعاً ما النقوش الموجودة على نواويس الرصاص المكتشفة في بيروت (راجع المشرق ٢٨ [١٩٣٠] ١٩٤) . على ان وجود هذا الناووس مطروحاً في الجادة الكبرى يدل على ان مقبرة المدينة قد نُهبت ، ونُقل هذا الناووس ليُستعمل وعاء لجمع ماء المطر .

وهناك آثار لا تقلّ اهمية عن كل ما ذكر ، كما انها لا تقلّ دلالة على تقدّم تلك المدينة في العمران ، ومقدرة اهليها في الهندسة والصناعة ، الا وهي الاقنية الحجرية والفخارية التي كانت تتفرّع في ارض المدينة فتوزّع الماء على انحائها المختلفة .

لا يخفى انه لم يكن في المدينة ماء يكفي سكانها ، ولم يكن بالامكان ان يحوّل اليها شيء من ماء العاصي ، وهو احطّ منها مستوًى . فلزم اذاً ان تُجرّ اليها المياه من نقطة بعيدة لم تُعرف بعد . اما المعروف فهو طريقة الجرّ ، وهي

على اتم ما يمكن من الترتيب . فقد كشفت اعمال الحفر ، تحت مستوى ارض المدينة ، عن قناة كبيرة مكشوفة رُفعت في بعض الاماكن على قناطر ضخمة واركان قوية حتى اوصلت المياه الى المدينة . واكتشف ايضاً قناة اخرى اصغر من المجرى الاول ، ولكنها مستديرة تجري فيها المياه مغطّاة ، يبلغ قطرها الداخلي خمسين سنتيمترًا ، والخارجي تسعين سنتيمترًا . والعجيب فيها انها كلها من الحجر المحفور حتى منعرجاتها وزواياها ، وهو شغل يدفع الى الدهشة والاعجاب ؛ وقد كُشف مؤخرًا قناة مثلها في اورشليم . هذا ويتفرّع عن تلك القناة الحجرية كثير من الاقنية الصغيرة فتسير في جميع انحاء المدينة ، الا انها من الفخار الصلب . وقد ظهرت كلها في الرسم ٦ .

* * *

هذا ما امكننا ذكره من نتائج حفريات البعثة البلجيكية في اول اعمالها . وقد تركت الآثار في غرف الخان الكبير القائم هناك ، تحت عناية الحكومة السورية ، وستعود في الخريف المقبل مع المعدّات اللازمة من ادوات لتسهيل الحفر ، وحافلات لتفريغ التراب ، وآلات لبناء سكة حديد صغيرة ، فتواصل اعمالها حتى تنتهي من تخطيط افامية تخطيطاً كاملاً .

وقد اشرنا الى الآثار المكتشفة بطريقة سطحية تاركين وصفها العلمي الدقيق وما يُستنتج منها لفائدة تاريخ المدنية القديمة ، الى المستقبل ، بعد ان يكون الاستاذ مايانس قدّم تقريره الى اللجنة البلجيكية ، وبعد ان يكون نشر آراءه وشروحه التي ليس من حقنا ان نشير اليها الآن . بل يكفي ان نطلع قرّاءنا الكرام على ما يجري في بلادنا وما يُكتشف فيها من الدفائن النفيسة ، واعدينهم بالعودة الى الموضوع ، متمنين للاستاذ مايانس متابعة عمله حتى النهاية .